



6.1.2015

دوستويفسكي

الجرّيمة والعقاب

المجلد الأول

ترجمة: سامي الدروني

دوستويفسكي

الجرّيمة والعقاب

1

ترجمة: سامي الدروني

المركز الثقافي العربي



لقد طُبعت أعمال الكاتب الروسي الكبير «دوستوفسكي» أكثر من مرّة.
ونحن نعيد طباعتها بموجب عقد مع ورثة المترجم الأستاذ سامي
الدروبي بعد إعادة تنضيدها وإخراجها في حلّة جديدة

الكتاب : الجريمة والعقاب (1) (رواية)

المؤلف : دوستوفسكي

المترجم : سامي الدروبي

الطبعة الأولى : 2010

ISBN 978-9953-68-462-6

جميع حقوق هذه الترجمة محفوظة لـ:

الناشر : المركز الثقافي العربي

بيروت والدار البيضاء

بيروت — لبنان

ص.ب. 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف : 01352826 - 01750507

فاكس : 01343701 - +961

الدار البيضاء — المغرب

ص.ب. : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف : 522303339 - 522307651

فاكس : 212 522 2305726

Email: markaz@wanadoo.net.ma cca@ccaedition.com www.ccaedition.com

كلمة عن دوستوفسكي

بقلم : الكاتب دانييل جرانين

في التاسع من فبراير عام 1981 احتفل العالم أجمع بالذكرى المائة لوفاة فيودور ميخايلوفتش دوستوفسكي . وقد اتجهت أنظار الناس وخواطريهم في جامعات تشيكوسلوفاكيا وأستراليا وإنجلترا واليابان والولايات المتحدة والسويد إلى تلك الدار المكونة من ثلاثة طوابق في إحدى حارات بطرسبرج والتي شهدت في شتاء 1881 وفاة الكاتب . لقد كانت حياة دوستوفسكي في بطرسبرج مرتبطة كلها بأحياء صغار الموظفين، والطلاب، والغرف المفروشة المؤجرة، والأفنية الحجرية الضيقة كالآبار، والأسواق، والحانات . . .

لقد غيرت المائة سنة التي مرت منذ ذلك الحين أشياء كثيرة في ذهن البشرية . ولكن أعمال دوستوفسكي مرت عبر كل هذه التحولات من دون أن تُمنى بخسائر، بل على العكس، خرجت منها أكثر حداثاً، بل واكتسبت طابعاً عصرياً ملحاً، غريباً في بعض الأحيان . وقد يبدو ذلك أحياناً أشبه بالنبوءة . إن كثيراً من المواضع في روايتي «الأبالسة» و«الأخوة كارامازوف» تُقرأ كنبوءات، وهي من الكثرة بحيث يصعب اعتبارها صدفة . وكأنما قدّمت عبقرية دوستوفسكي وحدثت مجرى

تطور البشرية . ولكن ، أليس ذلك من واجب العبقرية؟

ذات مرة قاذني حفيد دوستوفسكي أندريه دوستوفسكي في شوارع المدينة وهو يريني أماكن أحداث رواية «الجريمة والعقاب» . واتضح فجأة أن كل شيء يمكن رؤيته . واكتسب كل شيء مغزى تاريخياً . فهنا كان يعيش دوستوفسكي ، وهنا كان يعيش آل مارميلادوف .

ونحن نلاحظ دقة وصف الأماكن لدى كتاب آخرين ، مثلما لدى بوشكين في ميخايلوفسكويه ، ولدى ديكنز في لندن ، ولدى بونين في يلنا . ونجد المناظر الطبيعية والوصف بمثابة ديكورات للأحداث الجارية . ولكن الأمر مختلف لدى دوستوفسكي . إنه يعد مع راسكولنيكوف الخطوات من دار راسكولنيكوف حتى دار العجوز المرابية . وهو يعثر على تلك الدار ، وعلى السلم في تلك الدار ، وعلى الشقة المطلّة عليه ، أي يبدو وكأنه يُخرج مسرحية . إنه كاتب مسرحي ومخرج في نفس الوقت . ولا بد له أن يرى ما يحدث بعينه ، وأن يفهم . والفهم هو الأمر المدهش حقاً . إذ إن راسكولنيكوف يظل بالنسبة له سراً إلى حد كبير . ودوستوفسكي يحاول أن يفهمه ، ويقدم لذلك عدداً من التفسيرات . وهو لا يتظاهر بعدم الفهم ، فلا معنى لذلك ، إذ إنه يعرف عن راسكولنيكوف الكثير . . . يعرف أفكاره وأحاسيسه وكلماته وتصرفاته ، ولكن ذلك كله لا يكفي لتفسير وتعليل الدوافع والبواعث الكامنة في اللاوعي والتي حَدَثَ براسكولنيكوف للتصرف بما يخالف المنطق . إن كل ذلك لغز بالنسبة لدوستوفسكي . وهو ينظر إلى أبطاله نظرته إلى سرّ ، فالأمير ميشكين سرّ ، وايفان كارامازوف سرّ ، وستافروجين سرّ⁽¹⁾ .

إن ليف تولستوى يساعدنا على إدراك الإنسان ، ويطلعنا على تطور شخصيته ، وعلى منابع أفكاره ، ويقودنا إلى أعماق روحه .

أما دوستوفسكي فيساعدنا على إدراك استحالة معرفة الإنسان ،

ويطلعنا على لامحدوديته ، وعلى فوضى مشاعره ، ويرينا أي تناقضات وأي أعماق لا يمكن بلوغها تكمن في نفس الإنسان .

وتلك هي ضريبة احترام الإنسان ، وهذا هو الدرس الذي يقدمه دوستوفسكي لكل كاتب . فماذا نفعل نحن ؟ إننا في أدبنا نعرف الكثير والكثير عن أبطالنا ، وهم واضحون لنا حتى أعماق أعماقهم . ونحن على دراية بكل شيء وفي كل الظروف ، وكل شيء له دوافعه وكل شيء مفهوم وواضح ، وبوسعنا أن نحلل أبطالنا حتى النهاية فلا يبقى منهم شيء مجهول .

وذلك يعكس إلى حد ما عصرنا ، عصر الثورة العلمية التقنية ، حيث الأفعال عادة ما تكون ذات طبيعة نفعية ، تخضع للمصلحة والمنطق والظروف . وأمثال هؤلاء الأشخاص يبدو وكأنهم مطلوبون ، فهم مريحون ، وهم مناسبون وعندئذ يتضح أن دوستوفسكي يحميننا من هذا الشخص - المنفعة ، هذا الشخص - الوظيفة ، يحمي كرامة السر والغاية السامية لوجود الإنسان .

والسيكولوجيا لدى دوستوفسكي أداة لدراسة أهم قضايا الحياة ، ولدراسة القضية التي ربما كانت الأولى بينها ، قضية الإيمان . بم يؤمن الإنسان ؟ وهل يمكن أن يوجد الله ؟ لعله من السذاجة الظن بأن الإلحاد يقضي على الإيمان ، الإيمان بالانسجام ، بالسعادة العامة ، بالمغزى والغاية الخاصة من وجود الإنسان

وإذا ما تحدثنا عن دروس دوستوفسكي بالنسبة لعصرنا فاعتقد أنها ليست تلك الأسئلة الجريئة التي يطرحها في دائرة القضايا التي يثيرها - على الرغم من معاشة دوستوفسكي ومعاناته لكل الهموم السياسية والشعبية لذلك العصر كلا ، بل هي الأسئلة الأكثر إلحاحاً وأزلية . ولعله من المفيد أن نرى كيف كانت القضايا اليومية الملحة تنصهر وتُصَفَّى في روايات دوستوفسكي لتخرج منها الأفكار الحية ، لا

التهويمات المجردة، الأفكار المضرة بالدم والدموع لنفس حية.

دوستويفسكي يصور بجساسة أناساً فقدوا الإيمان... تخلى الإيمان عنهم وتركهم الآلهة وماتت. والسؤال الذي يعذب الكاتب هو: ما الذي سيحدث للبشرية إذا لم يكن هناك إله؟ ما الذي سيحدث إذا ما حل محل الإنسان الإله شخص قوي يستبيح لنفسه كل شيء؟ فماذا لو أن النزعة الإنسانية راحت إذا تنقرض وتفتى؟ كيف نواجه ذلك وندفعه عنا؟ وما الذي يجوز للإنسان أن يفعله؟ هل يجوز له أن يتصرف في أقدار الآخرين وحياتهم من أجل مصلحة الآخرين؟ من الذي يقتل فيدور كارامازوف؟ كيف يدور الصراع بين الخير والشر في النفس البشرية؟ أئمة خلود؟ ومن أين يأتي الازدواج والثنائية في الإنسان؟... إنه يدرس قضايا الوجود، والعذاب، والشر، والحب، والجريمة، والجنون، والأهواء، والمنفعة المغرصة...

لقد تميزت عبقرية دوستويفسكي الفنية بقوة فلسفية هائلة. وهو مهموم دائماً بالقضايا الجذرية، الحاسمة. والأدب بالنسبة له وسيلة تفكير، والكاتب عنده لا يتمتع فقط بالقدرة على ملاحظة تفاصيل الحياة بألوانها وروائعها وكلماتها المميزة ودقائقها، بل وأيضاً بالتفكير المضني في مغزى الحياة. تلك هي قوة دوستويفسكي، وذلك هو المثل الذي يقدمه للأدب المعاصر.

إن مؤلفاته خالية من الأمور العادية، فقد كان قادراً على رؤية خيالية الحياة الروسية.

كل ما يجري يجري في أكثر المدن واقعية، إذا جاز التعبير، ومع ذلك فكل ما يجري خيال. ليس هناك شياطين مرعبة، ولكن الواقع تزحزح قليلاً، وأحياناً بدرجة لا تلاحظ، ولذا فقد ظهرت إمكانية النظر في فجاج ومهاو لم تكن تخطر لنا على بال.

قراءة دوستويفسكي أمر صعب، وأحياناً تثير الشعور بالضيق، فما

السبب؟ إن رواياته تخلو من المشاهد الطبيعية وليس فيها تلذذ بوصف الأحداث المربعة وأعمال العنف المقبضة. ولكن هذا السؤال صعب ولا أستطيع أن أتصدى للإجابة عنه، وبودي فقط أن ألفت النظر إلى إحدى خصائصه، إلى أحد جوانب عبقريته والذي يبدو وكأنما يكشف أمرنا.

أريد أن ألفت النظر مثلاً إلى قوله في «المراهق»: «الإحساس الإنساني العادي ببعض السرور عندما تقع مصيبة للآخرين، أي عندما تنكسر ساق أحدهم، أو يتلطمخ شرفه، أو يفقد عزيزاً لديه... الخ...» أو قوله في مشهد الكارثة التي أصابت آل مارميلادوف في هذه الرواية: «... فهاهم أولاء سكان البيت يتجهون نحو الباب واحداً بعد آخر، وهم يشعرون بذلك الإحساس الغريب، إحساس اللذة الذي يلاحظ دائماً حتى لدى أقرب الأقرباء حين يرون شقاء يحل بقريبهم، وهو إحساس لا يخلو منه أي إنسان مهما يكن إحساسه بالأسف والشفقة صادقاً...»

بالطبع لا يريد أحد أن يكتشف في نفسه مثل هذا. ولكن دوستوفسكي يجبرنا بطريقة ما على أن نجد في نفوسنا الشيء السيئ، وأن نعثر فيها على تلك الأهواء التي تعصف بأبطاله. وعلى هذا نصبح وكأننا مشاركون، ومذنبون نحن كذلك، وها قد افتضحنا وانكشف أمرنا... ويتضح أننا لسنا أفضل من هؤلاء الأبطال، بل إننا مستعدون لارتكاب ما ارتكبه. وحينما نتحدث رواية «المراهق» عن أن الإنسان قادر على أن يرعى في روحه أسمى المثل إلى جانب أخط الدناءات، وكل ذلك عن صدق خالص... فهل هذا الكلام عن أناس الماضي فحسب؟

عندما تقرأ دوستوفسكي ينتابك الخجل... وهذه أعظم سمة من سمات عبقريته، وينبغي علينا أن نتعلمها إذا كان من الممكن تعلم

ذلك . تشعر بالخجل وتشعر بتأنيب الضمير ، ولذلك تصعب القراءة . فهو يجبرك على أن تخجل وتستحي ، ويقضي على كافة محاولات التهرب وتبرير الشر والفساد الخلقي . وما أبرعه في تصوير الدناءة والنفاق والرياء والقسوة ! كلا ، كلا هذه ليست عبقرية مريضة ، بل الأقرب إلى الصواب إنها موهبة شافية ، ليست قاسية بل إنسانية . أليس من الجائز أننا عندما نسعى بكل جهدنا إلى تصوير المظاهر الطيبة والجميلة والسامية والفاضلة وحدها ، وعندما نختر ونمدح أفضل النماذج وأكثرها مثالية فحسب . . . أليس من الجائز أننا بذلك نخمد يقظة الضمير ونضعف التشدد ، ونوافق الناس والشعب . إن المكانة التي تبوأها الأدب الروسي إنما تعززت أساساً بفضل ما قام به دوستوفسكي من فضح لا يكلّ للردائل والضلالات . ولم يشارك في هذا العمل دوستوفسكي وحده بل الأدب الروسي كله ، الذي تحلى بشجاعة أن يقول لشعبه كلمات الغضب والحزن . . .

وليس من السهل اليوم أن تهز ضمير الإنسان المعاصر ، فهو محضّن بسياج دفاعي متين . ولكن دوستوفسكي يستطيع ، كما لا يستطيع أحد غيره ، أن يخترق الحواجز والدفاعات ، وهو في ذلك واحد من أكثر الكتاب معاصرةً لنا .

وابداع دوستوفسكي يحقّز الفكر ، وقد أثر على أكبر الفلاسفة وعلماء النفس والعلماء في العالم . والكتب التي وُضعت عن دوستوفسكي تثير الاهتمام بما تتميز به من قيمة فلسفية وعلمية مستقلة . وهي بحد ذاتها رائعة .

الفنان وحده ، والكاتب في المقام الأول ، هو الذي يستطيع أن يساعد الناس على اكتشاف حقائق جديدة عن أنفسهم . وبهذا المعنى كان دوستوفسكي وسيبقى مفخرة لروسيا وللأدب الروسي وللأدب العالمي . ولتاريخ الفنون الطويل كله .